الذوق العام

للاستاذ احمد أمين

يظهر لى أن للأمة ذوقا عاما كما أن لها رأيا عاما وعرفا عاما لكلٍّ دائرة اختصاص لا يتعداها

فالرأى العام مداره الآراء والأفكار والمعقولات، والعرف العام مداره العادات أما الذوق العام فمداره الفن والجمال

وكما أن هناك قدرا مشتركا بين المصريين مثلا فى لونهم وتقاطيع وجوههم وملامحهم ،فنستطيع فى سهولة ويسر أن نميز المصرى من الاجنبى حتى فى البلاد الاجنبية — وكما أن هناك قدرا مشتركا فى الرأى العام المصرى فى النواحى السياسية والاجتماعية يميزه من غيره من الرأى العام الاوربى — فكذلك الشأن فى الذوق العام

يتجلى هذا فى كل أنواع الفنون كالطعوم ، فلكل أمة أنواع من الطعوم تستلذها وتغرم بها ،هى نتيجة ذوقها ،ومن أجل هذا كان طهى كل أمة يخالف طهى الأمة الأخرى — ولا يقتصر هذا على نوع المأكول بل يتعداه الى كيفية اعداده ، وبذا نستطيع أن نحكم على الأمة بأنها تستجيد كذا من ألوان الطعام وأنواعه ، على حين أن الأمة الاخرى لا تستسيغه ولا تتذوقه

ومثل الطعوم غيرها من الفنون ، فالذوق العام المصرى يقدر الموسيقى المصرية أكثر مما يقدر الموسيقى الغربية ، بل لا يستلذها ولا يرى فيها جمالا ، كما أن أكثر الغربيين لا يجد فى الموسيقى الشرقية طعما ، ولا يقيم لها وزنا

وكذلك أشكال البناء وما يستجاد منها وما لا يستجاد وأنواع الملابس وألوانها وما يستجمل منها وما يستهجن : كلها خاضعة للذوق العام فى الأمة . ولكل أمة فى هذه الشؤون ذوقها يميزها من غيرها ويضعها فى درجة خاصة من سلم الرقى

وهذا الذوق العام فى كل امة هو الذى يقوّم الادب ويتذوقه ، وهو الذى يجعل لكل أمة أدبا خاصا ، فالادب المصرى مثله مثل الطعوم المصرية ، والغناء المصرى والبناء المصرى انما يتذوقه المصريون بذوقهم العام ولا يتذوقه الغربيون بذوقهم العام ، كما لا يتذوقون طعومنا وغناءنا ، فالنوادر المصرية التى تعجب المصرى حتى تبعثه على أشد الضحك وأعمقه قد لا تحمل الاجنبى على التبسم ، والقصص « والحواديت » المصرية التى تسترق لب المصرى وتستهويه ، قد لا يأبه لها الاوربى ولا يعيرها التفاتا اذا ترجمت له — نعم قد يعجب المصرى بآيات من الآداب الغربية ولكنه لا يتم له ذلك الا بعد ان يحور ذوقه ويمرنه تمرينا طويلا على تذوّق هذا الادب ، كما يمرن المصرى ذوقه على استجادة الموسيقى الغربية فيستجيدها بعد طول المران ،ولكن هذا ليس من الذوق العام فى شىء

كما لا نستطيع ان ننكر ان هناك نوعا من الادب عالميا ، اذا ترجم الى أية لغة استجيد كنوع من القصص ، ونوع من الامثال ،ولكن سبب ذلك ان هناك قدرا مشتركا بين الاذواق ، كما ان هناك قدرا مشتركا بين العقول ، فاستجادة المصريين لبعض الأدب الغربى أو الغربيين لبعض الادب العربى ، شأنها شأن اشتراك الناس جميعا فى استجادة بعض الطعوم أو بعض قطع الموسيقى ، وهذا لا يغير فيما ادعينا شيئا من ان لكل أمة ذوقا عاما خاصا بها

وهذا الذوق العام للامة يستبد بالأفراد استبدادا لا حد له ، فالناس جميعا خاضعون لأنواع شتى من الاستبداد كاستبداد النظم السياسية ،واستبداد العقول ،واستبداد الرؤساء ولكن هذه كلها محدودة الدائرة ،أما استبداد الذوق العام فلا حد له ،ولا سلطان يشبه سلطانه ، ذلك أنه بجانب الذوق العام للأمة ذوق خاص بالفرد ، فكل فرد له ذوقه الخاص يستجيد به بعض الاشياء ولا يستجيد بعضا ،ويستحسن به ويستهجن ، ويستجمل ويستقبح ، ولكنه فى كل ذلك مسلوب الحرية خاضع خضوعا تاما للذوق العام . قد يشتد الحر فلا يطيق الانسان نفسه ،وقد يكون فى نوع من اللبس ما يخفف وطأته ويكسر من حدته ،ولكن لا بد أن يخضع للذوق العام ، فتلبس الخناق ورباط الرقبة وما الى ذلك خضوعا للذوق العام

وخشية من استهجانه، فليس انسان يلبس مايحب ولا يأكل مايحب على النمط الذى يحب ، ولا يتكلم كما يحب على النمط الذى يحب ، انما هو فى كل ذلك عبد أسير ذليل مقيد مغلول ، فى كل خطوة يخطوها، وفى كل نفس يتنفسه — لقد قيدتنا القوانين بأعمال يجب أن نعملها ، وأعمال يجب أن نتجنبها ، ولكنها ليست بشىء بجانب أوامر الذوق العام ونواهيه — وعقوبات الذوق العام سريعة فاتكة متنوعة ، فهو يعاقب بالاحتقار والازدراء ، ويعاقب بالنظر الشزر، والكلمة الجارحة القاسية، ويعاقب بالنقد والتجريح ، وهو فى كل ذلك لا يسمع دفاعا ولا يقبل عذراً ، ولا يؤجل عقوبة ، ولا يقبل حكمه نقضا وإبراما ، ولا يعرف حكما مع ايقاف التنفيذ — لاشىء من ذلك كله ولكن حكمه حكم صارم ، قاس ظالم

وكذلك الشأن فى كل نوع من أنواع الفنون، فأذا اشتهر مغن وأعجب ذوق الجمهور فلاحق لك ان تعيبه ، واذا عبته فعبه سرا ، وحذار أن تجهر بذلك فيكون دليلا على فساد ذوقك وضعف حسك

ومثل ذلك فى الأدب ـ إذا قال الناس ان سحبان وائل خطيب يضرب به المثل فى البيان ، فيقال أفصح من سحبان فقل مثلهم وان كنت لم تقف على شىء يثبت فصاحته ويبرهن على بلاغته ، وان فتشت عن كل أقواله فلم تجد الا اسطرا ثلاثة قال فيها ان الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، الخ ولم تستجد هذا فاتهم ذوقك وكرر قولهم: « أبلغ من سحبان »

واذا قالوا ان من أبلغ خطب العرب خطبة قس بن ساعدة: ايها الناس اسمعوا وعوا ، واذا وعيتم فانتفعوا، الخ، فقل كما قالوا وان لم تتذوق

واذا قالوا إن النابغة الذبيانى فضّل الشعراء بقوله :

هذا غلام حسنٌ وجهه مستقبل الخير سريع التمام
للحارث الاكبر والحارث الـ أصغر والاعرج خير الانام
ثم لهند ولهند وقد أسرع فى الخيرات منه أمام
خمسة آباء هُمُ ماهُمُ هُمْ خير من يشرب صوب الغمام

ثم قرأتها ولم تشعر لها بطعم ، ولم ترعك ألفاظها ومعانيها فقل ان النابغة فضّل الشعراء بها ، والا اتهمت فى ذوقك ورميت بضعف أدبك

وكذلك فاخضع دائما لحكمهم وذوقهم ، فمن قالوا فيه انه امام الأدب أو سيد الشعراء غير مدافع ، أو قالوا انه شاعر متكلف ، أو أديب متخلف ، فأياك ان تحدثك نفسك بان تقلب اوضاعهم أو تخالف إجماعهم

هكذا استبداد الذوق العام ، ولست تستطيع الخروج عليه واعلان استقلال ذوقك عنه الا بثورة عنيفة على الذوق وتعرض لكل أنواع العقوبات الذوقية

□□□

ثم ان كل ماترى فى الامة من مظاهر القبح واقراره فعلته ضعف الذوق العام ـ فاذا رأيت الامة تصدف عما فى بلادها من أزهار ، ولا يخفق قلبها لرؤية جمالها وجمال طبيعتها، ولا تتغزل فى محاسنها ، فاعلم ان سبب ذلك ضعف الذوق العام ، واذا رأيت الامة لا تقدس النظافة ولا تشمئز من القذارة اشمئزازها من أبغض شىء وأقبحه ، فعلل ذلك بضعف الذوق العام ، واذا رأيتنا فى المجتمعات لا نرعى نظاما ولا ننصت لفن أو ممثل ولا نتقيد بآداب اللياقة فقل انه ضعف الذوق العام وهكذا . . .

ومن الغريب أن هذا الذوق العام الذى يستبد بى فى مأكلى وملبسى ومسمعى وأدبى — كما رأيت — لا يستبد فى هذه الاشياء ، ولا يبدى أى سلطان على هذا النوع من الضعف ، فهو لا يحتقر المرء لا يقوّم الزهر ، ولا يزدرى من يسىء فى المجتمعات العامة ، ولكن يزدريني اذا خرجت من غير طربوش أو رباط رقبة فى يوم حار ، وسبب ذلك أن الذوق العام لا يعاقب الا على ما يتذوق ، وفى دائرة ما يفهم ، فهو اذا قوّم مناظر الطبيعة عاقب من لم يتذوقها ، واذا أدرك جمال النظام وآداب المجتمعات عاقب من مسها بسوء ، ولما يصل الى هذه الدرجة

□□□

وبعد فشأن الذوق العام شأن الرأى العام كلاهما قابل للاصلاح والرقى ، فالرأى العام ضعيف وسخيف اذا صدر عن أمة جاهلة، ويرقى الرأى العام بانتشار الثقافة وتعميم التربية، ويدل تاريخ كل أمة على أنها فى أول أمرها لا يكون لها رأى عام، ثم تمنح أفرادا قليلين أقوياء، زعماء مثقفين يوفقون فى دعوتهم فيخلقون رأيا عاما ، وإن هؤلاء القادة يجب ان